



قصة وصايا لقمان لابنه

تأليف
الشيخ مصطفى العدوي

مكتبة مكة

موعظة لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لولده

والفوائد

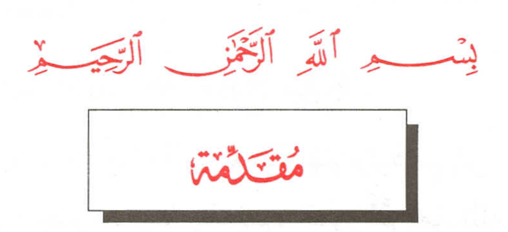
المستنبطة منها

إعداد

أبي عبد الله

مصطفى بن العدوي

مكتبة مكة



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وليِّ الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا -.

وبعد:

فدائمًا خيرُ القصص، وخير المواعظ، وخير الحِكَم، تلكم القصص والمواعظ والحِكَم الواردة في كتاب الله عز وجل، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ، إذِ الله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق، وهو - سبحانه - أعلم بهم، وأعلم بما يُصلحهم وينفعهم.

قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: الآية ١٤].

ولما كانتِ الذكرى تنفع المؤمنين، كما قال تعالى:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٥].

ولما كانت المواعظ ترقق قلوبهم وتردُّهم إلى الحق ردًّا جميلًا، وتُبصرهم بما ينفعهم، فمن ثَمَّ أمر الله وذكَّر - سبحانه - بها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيِّه محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النِّساء: الآية ٦٣].

وقد امتثل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَ ربِّه خيرَ امتثال، ومن هذا ما ذكره العرباض بنُ سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال[1]: «وَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ».

وقد قال بعض أهل العلم عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: الآية ١٦]:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي:

---

(١) صحيح لشواهده: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧).

ابتعدوا زمنًا طويلًا عن المواعظ والتذكير، فلما كان ذلك تسربت القسوة إلى القلوب.

فعلى الشخص أن يتعاهد نفسه باستماع المواعظ الحين بعد الحين، ولا يغفل عن ذلك، وذلك كي تزكو له نفسه، ويصفو له قلبه ويلين، وتنذرف الدموع من عينيه، ويعقل عن الله عز وجل قوله وأمره ونهيه، فضلًا عن إصلاح معتقده، وإحسان عمله، وإخلاص نواياه، وما وراء ذلك من الفقه في الدين، وحُسن المعاملات مع المخلوقين.

لذا؛ ولغيره شُرع الوعظ وشُرع التذكير!!.

وهذه موعظة لقمان رضي الله عنه لولده:

يُذكِّرنا الله تبارك وتعالى بها كي نتأملها ونتدبرها، ونعمل بمقتضاها، فضلًا عن تلاوتها، إذ هي قرآنٌ يُتلى، وذِكرٌ يُرقق الله به القلوب، ويُورث الله به الخشية، وتتنزل معه الملائكة والسكينة.

فإلى هذه الموعظة وما فيها من النفع العميم، والخير الكثير الجزيل، والبركات المتوالية المتتابعة، فكتاب الله

كتابٌ مباركٌ، وكل ما فيه إنما هو خيرٌ وبركةٌ، نسترشد به ونهتدي، ونستضيء به ونستنير، فإلى هذا الكتاب العزيز، إلى هذا الكتاب الكريم المجيد، هذا الكتاب الحكيم المبارك.

نسأل الله أن يعلمنا إيَّاه، وينفعنا بما فيه، ويجعله حجةً لنا لا علينا، وأن يجعله شفيعًا لنا يوم نلقى ربنا، وأن يورثنا به أعالي الجنان وفسيحها.

كما نسأله - سبحانه - أن يجمع به شمل المسلمين، وأن يؤلف به بين قلوبهم، وأن يُعليه فوق كل كتاب، ويظهره على كل الكتب... آمين.. آمين... آمين.

هذا؛ وصلِّ اللهم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين

كتبه

أبو عبد الله
مصطفى بن العدوي
مصر - الدقهلية - منية سمنود

الموعظة كما جاءت في كتاب الله عز وجل

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ

أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٢ - ١٩].

معاني المفردات الواردة في هذه الموعظة:

الكلمة	معناها
﴿ءَاتَيْنَا﴾	أعطينا - رزقنا - علَّمنا
﴿حَمِيدٌ﴾	محمود على كل حال
﴿يَعِظُهُۥ﴾	يُذكِّره - يُخوِّفه
﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾	ضعفًا على ضعفٍ - جهدًا على جهدٍ - مشقة فوق مشقة
﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾	فطامه بعد عامين - تربيته - إرضاعه بعد وضعه
﴿جَٰهَدَاكَ﴾	حارباك - اجتهدوا لإجبارك على فعل شيء
﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ﴾	اسلك طريق

الكلمة	معناها
﴿أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾	رجع إليَّ - سلك طريقي - أقبل عليَّ
﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾	فأخبركم
﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾	زنة حبةٍ - وزن حبة
﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾	حافظ وداوم عليها
﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾	يُحضرها الله(٢) يوم القيامة
﴿لَطِيفٌ﴾	عليم بالأشياء وإن تضاءلت
﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾	الأمور التي أمر الله بها وأكَّد على فعلها
﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾	لا تُمل - لا تُعرض

---

(٢) كما قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧] .

معناها	الكلمة
مختالًا - متبخترًا - متجبرًا	﴿مَرَحًا﴾
جبار - مُتعالٍ	﴿مُخْتَالٍ﴾
مُتكبر على الناس	﴿فَخُورٍ﴾
توسط في مشيك	﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾
واخفض	﴿وَاغْضُضْ﴾
شر الأصوات - أقبح الأصوات - أشد الأصوات	﴿أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾



أما عن لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ و رَحِمَهُ اللَّهُ:

فلم أقف في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ على شيءٍ بخصوصه إلا في هذه السورة المباركة، وكذا لم أقف على شيءٍ ثابتٍ عنه في سُنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هو لقمان بن عنقاء بن سدون، واسم ابنه ثاران في قولٍ حكاه السهيلي».

وعن عمله: فقد قيل: إنه كان خيَّاطًا، وقيل: كان نجارًا، وقيل: كان راعيًا، وقيل: كان قاضيًا، فالله عَزَّ وَجَلَّ أعلى وأعلم !!.

ولقد ذكرت أوصافٌ له كثيرة تدل على دمامته، فالله أعلم.

وقد قيل: إنه من الحبشة، وقيل: من السودان، والعلم عند الله.

وكلُّ هذا ليس بضّائر، فالعبرة مأخوذة على كل حال،

والحمد لله.

فهو رجل آتاه الله الحكمة، وذكَّرنا سبحانه بموعظته لولده، علَّنا ننتفع بها ونستفيد منها.

فمن ثَمَّ لا تبذل جهدًا، ولا تضيع وقتًا وراء البحث عن نسبه وقبيلته وبلدته، فلنسكت عما ترك الله ذكره في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، ولنسكت عما لم يذكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفظًا للجهد والوقت[٣].

وهل لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نبي أم ليس بنبي؟

فأكثر أهل العلم[٤]: على أنه ليس بنبيٍّ، وإنما هو

(٣) ولا نرهق أنفسنا أيضًا في البحث عن اسم كلب أصحاب الكهف، وقبائلهم، ولا بلدة العزير، ولا غير ذلك.

(٤) والقول بعدم نبوته هو قول جمهور العلماء، ذكره عنهم القرطبي، وابن كثير - رحمهما الله - وغيرهما من العلماء.

ومما استدل به على عدم نبوته ما ورد في بعض الآثار من أنه كان عبدًا حبشيًا، والرسل إنما تُبعث في أحساب قومها كما قال هرقل لأبي سفيان سائلًا إياه عن حسب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال =

عبدٌ صالحٌ آتاه الله عز وجل الحكمة، وعلَّمه إيَّاها.

قال قتادة: «لم يكن نبيًّا، ولم يوح إليه».

وصحَّ عن مجاهد أنه قال: «كان لقمان رجلًا صالحًا ولم يكن نبيًّا»(٥).

هذا؛ ويتقدم الموعظة ثناءٌ من الله عز وجل على لقمان وبيان فضله سبحانه وتعالى ونعمته عليه:

فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، وهذا الثناء في هذا الموطن له فائدةٌ عظيمةٌ، فوصفه بالحكمة يقتضي الحثَّ على الاستماع إلى ما سيلقيه لقمان من الموعظة؛ وذلك لكونها مواعظ صادرةً من حكيم، والذي وصفه بأنه أوتي الحكمةَ إنما هو الله عز وجل، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النِّساء: الآية ٨٧].

= أبو سفيان: هو فينا ذو نسبٍ، فقال هرقل: وكذا الرسل تُبعث في أنساب قومها.

(٥) انظر (الطبري / ٢٨٠٧٩) فما بعده.

ثم إنها موعظةٌ ذكرها الله عز وجل في كتابه الكريم، فدلَّ ذلك على أنه يلزمنا الاعتناء بها وتدبرها، والتفكر فيها، والعمل بمقتضاها.

أما الحكمة فلها معانٍ كثيرة:

منها: الإصابة والسداد في القول والعمل.

ومنها: وضع الشيء في محلِّه اللائق به، فلا يتكلم بكلمة في غير موضعها، فمثلًا إذا رأى المقام يحتاج إلى شدةٍ اشتدّ، وإذا رآه يحتاج إلى إلانةٍ ألانَ الخطاب.

ومنها: الفهم الجيد الصحيح، والعلم النافع، وحُسن التعبير والتأويل.

وصح عن قتادة أنه قال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾: أي الفقه في الإسلام.

ومنها: الصواب في المعتقد والفقه في الدين والعقل.

ومن معانيها أيضًا: أنها العقل الراجح الذي يمنع صاحبه من سيِّئ التصرفات.

هذا؛ وأحيانًا تُطلق الحكمة ويُراد بها السُّنة.

هذا؛ وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فضل الحكمة ومن يؤتاها:

فقال في كتابه الكريم: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩].

وبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنّته على نبيِّه داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٠].

وعلى نبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [المائدة: الآية ١١٠].

وكذا مِنّته على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ١١٣].

ثُمَّ، وبعد أن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النعمة التي أنعمها على لقمان، ألا وهي إيتاؤه الحكمةَ، أمره أن يقدم لذلك شكرًا لله على ما مَنَّ به عليه، واختصه به من بين أهل زمانه

وأقرانه وخِلانه من الحكمة، فقال له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾، قدِّم شكرًا لخالقك، وذلك إقرار بالفضل واعتراف بالنِّعم، ثم حتى تحفظ هذه النعمة وتزداد ولا تتحول ولا تزال، فالذي رزقك الحكمة هو الله، فقدِّم له شكرًا حتى يزيدك منها، ولا يحولها إلى غيرك.

فدائمًا شكر النعم سببٌ عظيمٌ من أسباب زيادتها ونمائها وحفظها، وكفران النِّعم سببٌ لزوالها ولتحولها وصرفها:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٧].

أي: وإذ أخبر ربُّكم وأعلم ربُّكم لئن شكرتم لأزيدنَّكم من نعمي، ومن فضلي عليكم، ولئن جحدتم نعمتي ولم تقدموا لها شكرًا فسيحلُّ بكم العذابُ الشديد إما في الدنيا بزوالها، أو يجعلها نقمةً، وإما في الآخرة.

فجديرٌ إذن بكل من أنعم الله عليه أن يقدِّم لهذه النعمة

شكرًا، وكلما ازدادت نعم الله عليك لَزِمَك أن تقدّم لها مزيدًا من الشكر.

فهذه مريمُ - عليها السلام - أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليها:

فقال سبحانه: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٢].

وقال الله لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٣].

وهذا نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله له - وقد أنعم عليه واصطفاه بالرسالة والتكليم -:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٤].

ونبي الله داود وولده سليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليهما بالذي أنعم، من تسبيح الجبال والطير مع داود، وإلانة الحديد له، والصوت الحسن الجميل، والحكمة وفصل الخطاب، وغير ذلك.

وكذا ما أنعم به - سبحانه - على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من تسخير الرياح والجن، وفهم لغة الطير، وإسالة عين القطر له.

قال الله سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سَبَإ: الآية ١٣].

وكذا قريش:

لما أنعم الله عليها بنعمة الأمن والأمان، والرزق الذي يأتيها من كل مكان، وكونهم يذهبون إلى اليمن والشام كلَّ عام آمنين مطمئنين وغيرهم يتخطف.

قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ١ - ٤].

ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال الله له: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: الآية ١].

وقال له: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: الآية ٢]..

فكما أنَّا أعطيناك الكوثر - وهو الخير الكثير الذي منه نهرٌ في الجنة، ومنه الحوض - فقدِّم لذلك شكرًا ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: الآية ٢] .

ونحوه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١ - ٤]، ثم قال له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشّرح: الآية ٧] أي: فاجتهد في عبادة ربك، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشّرح: الآية ٨] في اللجوء إليه، ولتكن رغباؤك إليه.

وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾، ثم قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضّحى: الآية ٩] .

كما أننا آويناك إذ كنت يتيمًا فلا تقهر الأيتام.

وكما أننا هديناك إذ كنت ضالًّا ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضّحى: الآية ١٠] .

وكما أننا أغنيناك إذ كنت عائلًا تعول غيرك.

فحدّث بنعمة الله عليك واشكرها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: الآية ١١] .

وهكذا كل من أنعم الله عليه يلزمه أن يقدم شكرًا لله حتى تُحفظ عليه نعم الله وتزداد.

هذا؛ ولأن نعم الله علينا لا تُحصى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] .

فجديرٌ بنا أن نُكثر من الحمد، وأن نُكثر من الشُّكر باليد وباللسان وبالقلب - أعاننا الله على ذكره وشكره وحُسن عبادته -.

ثم بيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ أن الشاكر إنما يعود ثواب شكره على نفسه:

فقال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾[لقمان: ١٢] .

كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصّلت: ٤٦] .

وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الرّوم: الآية ٤٤] .

وكما في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم[٦] في «صحيحه»: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا».

ويُبين الله عَزَّ وَجَلَّ غناه عن خلقه وعن شكرهم له، فيقول تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: ومن جحد النعم وكفرها ولم يؤد شكرها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ عنه وعن شكره.

وقوله تعالى: ﴿حَمِيدٌ﴾ أي محمود على كل حال، وإن كفر النِّعمَ الكافرون، وجحدها الجاحدون.

وكذلك فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يحمد صنائعَ المعروف التي يفعلها العباد ويتقربون بها إليه، وذلك حتى لا يتسرب إلى شخص، سؤال حاصله: إذا كان الله غنيًّا عنَّا وعن شُكرنا، فلماذا نقدم هذا الشكر؟

فيكون جوابه: إن الله يحب منا صنائع المعروف.

---

(٦) مسلم (٢٥٧٧).

قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: الآية ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨].

قال الطبري رحمه الله:

«وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره: ولقد آتينا لقمان الحكمة، أن احمد الله على ما آتاك من فضله، وجعل قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ ترجمة عن الحكمة؛ لأن من الحكمة التي كان أوتيها، كان شكره الله على ما آتاه.

وقوله: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ يقول: ومن يشكر الله على نعمه عنده فإنما يشكر لنفسه؛ لأن الله يجزل له على شكره إيَّاه الثواب، وينقذه به من الهلكة ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ يقول: ومن كفر نعمة الله عليه، إلى نفسه أساء؛ لأن الله مُعاقبه على كفرانه إياه، والله غني عن شكره إياه على نعمه، لا حاجة به إليه؛ لأن شكره إيَّاه لا يزيد في سلطانه، ولا ينقص كفرانه إياه من ملكه.

ويعني بقوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود على كل حال، له الحمد على نعمه، كفر العبد نعمته أو شكره عليها، وهو مصروفٌ من مفعول إلى فَعيل». اهـ.

وها هي الموعظة مع شرحها وفوائدها وتفسير آياتها:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان: الآية ١٣]، أي: واذكر موعظة لقمان لابنه.

وهذا شأن أهل الفضل مع أبنائهم يقدمون لهم المواعظ، ويخوفونهم بالله، ويحذرونهم من عقابه، ويرشدونهم إلى ما يقربهم من ربهم ولقائه، ويسألون الله لهم الهداية(٧).

---

(٧) كما قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: الآية ٤٠].

وكما في دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: الآية ٧٤].

كما في الدعاء: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ [الأحقاف: الآية ١٥].

تبدأ الوصية بالتحذير من الشرك:

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

هكذا تبدأ الوصية بالتحذير من أخطر الأخطار، وأكبر الكبائر، وأعظم الذنوب.

نعم، فالشرك ظلم عظيم، كما قال الله تعالى.

إنه ذنب لا يُغفر، إذا مات عليه العبد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨].

إنه كذب وافتراء على الله:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٤٨].

إنه ضلال بعيد:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٦].

إنه يحبط الأعمال ويذهب بثوابها:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٨] .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥] .

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: الآية ١٥١] .

إنه أكبر الكبائر:

قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ...» الحديثِ[٨] .

إنه يُحرِّم الجنة على مرتكبه:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المَائدة: الآية ٧٢] .

---

(٨) البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًّا.

وروى مسلم[٩] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **«قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»**.

وأخرج الإمام أحمد في «مسنده»[١٠] بإسناد صحيح عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ -: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»**.

وأخرج البخاري ومسلم[١١] من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ**

---

(٩) مسلم حديث (٢٩٨٥).

(١٠) أحمد (٥/ ٤٢٨).

(١١) البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَلَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي».

هذا؛ وهذه الآية الكريمة مفسرةٌ لآية في سورة الأنعام، ألا وهي:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] .

فلما نزلت شقَّ نزولها على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «ألم تقرءوا قول لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

وها هو الحديث بذلك:

أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ

ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣]»(١٢).

وفي بعض الروايات: «فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣]».

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] أي: لبخس عظيم للنفس، فالمشرك بخس نفسه حقها وظلم نفسه ظُلمًا شديدًا، فلنفسه عليه حق، من حقها عليه أن يبحث لها عن أسباب سلامتها، وأسباب نجاتها، وأسباب سعادتها، ويفعل ما يجلب لها به السعادة والسلامة والنجاة، أما كونه يُهلكها ويُرديها ويتسبب لها في عذابٍ لا يزول، ولا يتحول، ويتسبب لها في دخول الجحيم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، فقد بخسها حقها بلا شك، وأي بخس أعظم من هذا البخس؟!!

وأيُّ ظُلم أعظم من هذا الظلم؟!!

(١٢) البخاري (٣٤٢٩)، ومسلم (١٢٤)، واللفظ له.

عياذًا بالله من الظلم والظلمات!!.

ثم إن أعظم حقٍّ لله علينا: أن نعبده ونوحده لا نشرك به شيئًا، فمن لم يؤد هذا الحق فقد ارتكب أعظم الظلم.

وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣]!!.

ثم تأتي الوصية الثانية بعد النهي عن الشرك:

ألا وهي الوصية بالوالدين:

فبعد بيان حق الله عَزَّ وَجَلَّ علينا، ألا وهو توحيده وعدم الشرك به، يأتي وبعد حق الله ورسوله، حق الوالدين.

فحق الوالدين أعظم حق بعد حق الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وبين يدي الحديث عن حق الوالدين، أقول - وبالله تعالى التوفيق -:

ها هنا لفتةٌ، حاصلها: أن لقمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يقل لولده، واستوصِ بوالديك خيرًا، ولم تجر وصية بالوالدين على لسانه، وذلك حتى لا يظنَّ المنصوح أن الناصح إنما ينصح

من أجل نفسه، وكذا لا يظن من قدمت له الموعظة أن الواعظ إنما يعظ لحظ نفسه، بل جعلت الوصية بالوالدين من الله عز وجل، فحصل تحول في الخطاب.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: الآية ١٤].

وبعد هذه اللفتة أقول - وبالله تعالى التوفيق -:

لقد تكرر التذكير بحق الوالدين وبرهما في عدة آيات من كتاب الله عز وجل بعد الأمر بتوحيد الله عز وجل، وبعد النهي عن الشرك، وذلك لبيان عظيم حقهما، ودلّت على هذا أدلة كثيرة من الكتاب والسُّنة.

فمن ذلك ما يلي:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النِّساء: الآية ٣٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ

أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣].

وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يحسنوا إلى الوالدين:

فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: الآية ٨٣].

فانظر إلى هذه النصوص، وكيف وأن الأمر بعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ وحده لا شريك له جاء ويُعقبه الأمر بالإحسان إلى الوالدين؟ فترى على ماذا يدل هذا؟!!.

ثم انظر أيضًا إلى حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يُبين منزلة برِّ الوالدين من بين سائر الأعمال:

وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم[١٣] من حديث

---

(١٣) البخاري (٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥).

عَبْدِ اللَّه بن مَسعُودٍ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**». قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي.

وأخرج الإمام أحمد(١٤) بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِئٍ يَقْرَأُ، فَقُلْتُ: «مَنْ هَذَا؟» قَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كَذَاكَ الْبِرُّ، كَذَاكَ الْبِرُّ**»، وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ».

وحديث الثلاثة(١٥) أصحاب الغار، وتوسل واحدٍ منهم ببرّه بأبويه مشهور صحيح ومعروف، وفيه: أن الله فرَّج بسبب ذلك شيئًا مما هم فيه.

---

(١٤) «المسند» (٦/ ١٥١- ١٥٢).

(١٥) انظره في البخاري (٥٩٧٤)، ومسلم (٢٧٤٣).

وفي «الصحيحين»[١٦] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَبُوكَ**».

---

(١٦) البخاري مع «الفتح» حديث (٥٩٧١)، ومسلم مع النووي (٥/ ٤١٠).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفيه الحثُّ على برِّ الأقارب، وأن الأم أحقُّهم بذلك، ثم بعدها الأب، ثم الأقرب فالأقرب.

قال العلماء: وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه، وشفقتها وخدمتها، ومعاناة المشاق في حمله ثم وضعه ثم إرضاعه ثم تربيته وخدمته وتمريضه وغير ذلك.

ونقل الحارث المحاسبي إجماعَ العلماء عن أن الأم تفضل في البرّ على الأب، وحكى القاضي عياض خلافًا في ذلك، فقال الجمهور بتفضيلها.

وقال بعضهم: يكون برُّهما سواءً، قال: ونسب بعضهم هذا إلى مالك، والصواب الأول لصريح هذه الأحاديث في المعنى المذكور. والله أعلم.

وعند البخاري في «الأدب المفرد»(١٧) بإسناد حسن من

(١٧) البخاري في «الأدب المفرد» (٣ جـ١ ص٤٤).

وقال فضل الله الجيلاني رَحِمَهُ اللهُ تعالى في تعليقه على هذا الحديث من «الأدب المفرد»:

الأم مقدمة في الإجماع في البرّ على الأب، وأن يكون للأم ثلاثةُ أمثال ما للأب من البرّ، وذلك لتحمل المشاق في الحمل والوضع حتى تكاد تموت، ولا أقل أن تذوقه في كل وضع إذا ضربها الطلق، ثم المحنة زمن الرضاع إلى أن يكبر الولد ويستغني عن خدمتها، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ثم تشارك الأب في الإنفاق والتربية وأنواع من المؤنة والخدمة ما داما حيين (كذا ذكره السيوطي) أخذ ذلك من تكرار حق الأم، والأظهر أن يكون تأكيدًا ومبالغة في رعاية حق الأم، وذلك لتهاون أكثر الناس في حق الأم بالنسبة إلى الأب؛ لأن أمر الأم كلّه في البيت تحت الستور ولا يطلع عليه الناس، فيجترئ الناس على عقوقها أكثر من عقوق الوالد حياءً من الناس، وكذا قوته تزجر عن الجرأة عليه، وضعفها يحمل الدنيء على الإساءة إليها، ولا يبعد أن الشريعة بالغت في البرّ بها أكثر من البرّ بالأب مواساة لها ومراعاة لضعف قلوب النساء وشفقة على الولد، مع أن الأب ليس أنقص حقًّا من حقوقها؛ لأن الأم للين طبعها وضعف بنيتها لا تستطيع أحيانًا=

طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قلت: مَنْ أَبَرُّ ؟ قَالَ: «أُمَّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمَّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أَبَاكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى».



= أن تتحمل إباءه وسوء خلقه فتعجل أن تغضب فتسرع بالدعاء عليه. والمذكور في كتب الفقه أن حق الوالد أعظم من حق الوالدة وبرّها أوجب، كذا في شرعة الإسلام. [إنجاح الحاجة، بزيادة]

وهذه وصية بالأم أيضًا

وعن المقدام بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ - ثَلَاثًا -، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ**»(١٨).

وهذا يدل على فضل برِّ الأم:

فكما هو معلوم من منهج ابن عباس وطريقته في الفتيا في أبواب الكفارات أنه يفتي - إذا لم يكن في تحديد الكفارة نصٌّ - بكفارة توازي الذنب المرتكب أو تفوقه حتى يمحى أثره ويزال، كفتياه في إتيان الحائض، وفتياه في من ترك واجبًا من واجبات الحج وغير ذلك.

وها هو هنا يفتي بفتوى فاقرأها وأمعن النظر لترى كيف منزلة برّ الأم مع الكفارات:

أخرج البخاري(١٩) في «الأدب المفرد» بإسناد صحيح

---

(١٨) صحيح لشواهده: أخرجه ابن ماجه (٣٦٦١).

(١٩) «الأدب المفرد» (أثر ٤ جـ١) ص (٤٥).

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه أتاه رجل فقال: إني خطبت امرأة فأبت أن تنكحني، وخطبها غيري فأحبَّت أن تنكحه، فغِرتُ عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا، قال: تب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وتقرب إليه ما استطعت، فذهبت فسألت ابن عباس: لم سألته عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملًا أقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من بر الوالدة.

وهذا أثر أيضًا: بإسناد صحيح عن ابن عمر، فعند البخاري في «الأدب المفرد»(٢٠) من طريق طيسلة بن مَيَّاس قال: كنت مع النجدات(٢١) فأصبت ذنوبًا لا أراها إلا من الكبائر فذكرت ذلك لابن عمر قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا، قال: ليست هذه من الكبائر، هنَّ تسع: الإشراك بالله، وقتل نسمة، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد في المسجد، والذي

---

(٢٠) «الأدب المفرد» (أثر ٨ جـ١) ص (٥٢).

(٢١) النجدات: أصحاب نجدة بن عامر الخارجي، قاله فضل الله الجيلاني.

يستسخر، وبكاء الوالدين من العقوق.

قال لي ابن عمر: أتفرق من النار، وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: إي والله! قال: أحيٌّ والداك؟ قلت: عندي أمي، قال: فوالله لو ألنت لها الكلام، وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة، ما اجتنبت الكبائر.

هذا؛ وقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ بيان لسبب الوصية بالوالدين، وتذكيرٌ بإحسانهما المتقدم، وبحق الأم خاصة.

فإن سأل سائل عن سبب الوصية بالوالدين، وسبب الاعتناء بالأم؟

فلذلك أسباب منها:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ في بطنها ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي ضعفًا على ضعف.

فالمرأة بجبلتها ضعيفة، ثم الحمل يضعفها أكثر وأكثر، ويجهدها أشد وأشد.

وأيضًا من أسباب الوصية بها: كونها أرضعته وقامت على تربيته وخدمته بعد إرضاعه، وذلك مدة الرضاعة التي بها يستغني عن سائر المطعومات، ألا وهي عامان.

قال تعالى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين.

ثم أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بتقديم الشكر له سبحانه، فله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن أولًا وآخرًا.

وأمر أيضًا بتقديم الشكر للوالدين، وعهد إليه بذلك.

فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تذكيرًا بحق الوالدين وحثًّا على إكرامهما والإحسان إليهما والدعاء لهما كما قال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٤].

أما قوله تعالى: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، فتذكير بأن المرجع والمآب والمراد إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة.

فيجازي كلَّ عامل بعمله، وكل شاكر على شكره، أفضلَ الجزاء وأتمه وأوفره.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ :

وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ يقول: وعهدنا إليه أن اشكر لي على نعمي عليك، ولوالديك تربيتهما إياك، وعلاجهما فيك ما عالجا من المشقة حتى استحكم قواك.

وقوله: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يقول: إلى الله مصيرك أيها الإنسان، وهو سائلك عما كان من شكرك له على نعمه عليك، وعما كان من شكرك لوالديك، وبرّك بهما على ما لقيا منك من العناء والمشقة في حال طفولتك وصباك، وما اصطنعا إليك في برّهما بك، وتحننهما عليك.



﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾

وهذه الآيات الكريمات نزلت في سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه:

أخرج مسلم[٢٢] في «صحيحه» من حديث مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَلَّا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ - وَأَنَا أُمُّكَ - وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا.

قَالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى

(٢٢) مسلم (١٧٤٨).

وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]... فذكر الحديث.

وفي رواية عند الطبري(٢٣):

عن سعد بن مالك - وهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - قال: نزلت فيَّ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ قال: لما أسلمت، حلفت أمي لا تأكل طعامًا ولا تشرب شرابًا، قال: فناشدتها أول يوم، فأبت وصبرت، فلما كان اليوم الثاني ناشدتها، فأبت، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت، فقلت: والله لو كانت لك مائةُ نفس لخرجت قبل أن أدع ديني هذا، فلما رأت ذلك، وعرفت أني لست فاعلًا أكلت.

وفي رواية أخرى عنه:

قال: قالت أم سعد لسعد: أليس الله قد أمر بالبرّ،

(٢٣) الطبري (٢٨٠٩٨).

فوالله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصًا، ثم أوجروها، فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: الآية ٨] .

وكما سلف فقد أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالإحسان إلى الوالدين وأوصى بهما، وهذا يتضمن بلا شك طاعتهما، ولكن كما هو معلوم أن الطاعة إنما هي في المعروف، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢٤).

وهنا يقول: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: وإن حرصا كلَّ الحرص واجتهدا كل الاجتهاد، وضغطا بكل أنواع الضغوط عليك كي تترك دينك وتتابعهما على دينهما دينِ المشركين فلا تطعهما ولا توافقهما، ومع هذا الرفض رفضِ الدخول في دينها، ومع حرصهما على أن تتابعهما ورفضك لذلك، صاحبهما في

(٢٤) صحيح: وسيأتي إن شاء الله.

الدنيا معروفًا، أي أحسن إليهما بصور الإحسان التي تستطيعها دون أن يتأثر بذلك دينك، واتبع سبيل أهل الإيمان، واسلك طريقهم، واقتفِ آثارهم، فهذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: الآية ١٥] يعني: واسلك سبيل المؤمنين المطيعين لي الذين سلكوا طريقي، واستقاموا على أمري.

هذا؛ وقد قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

«يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أيها الإنسان والداك على أن تشرك بي في عبادتك إياي معي غيري مما لا تعلم أنه لي شريك، ولا شريك تعالى ذكره علوًّا كبيرًا، فلا تطعهما فيما أراداك عليه من الشرك بي، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يقول: وصاحبهما في الدنيا بالطاعة لهما فيما لا تبعة عليك فيه فيما بينك وبين ربك ولا إثم.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يقول: واسلك طريق من تاب من شركه، ورجع إلى الإسلام، واتبع محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا:

«وقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن إليّ مصيركم ومعادكم بعد مماتكم، فأخبركم بجميع ما كنتم في الدنيا تعملون من خير وشر، ثم أجازيكم على أعمالكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

فإن قال لنا قائل: ما وجه اعتراض هذا الكلام بين الخبر عن وصيتي لقمان ابنه؟ قيل ذلك أيضًا وإن كان خبرًا من الله تعالى ذكره عن وصيته عباده به، وأنه إنما أوصى به لقمان ابنه، فكان معنى الكلام: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾، ولا تطع في الشرك به والديك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، فإن الله وصَّى بهما فاستؤنف الكلام على وجه الخبر من الله، وفيه هذا المعنى، فذلك وجه اعتراض ذلك بين الخبرين عن وصيته.

أما المراد بقوله: ﴿إِنَّهَا﴾:

فقد قال بعض أهل العلم: إن المراد بقوله: ﴿إِنَّهَا﴾ أي الخطيئة أو المعصية.

وقول ثانٍ: إن المراد الشيء المعمول خيرًا كان أو شرًّا.

وقول ثالث: إن المراد الرزق المقدر.

والمراد بالصخرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾:

قال بعض أهل العلم: إن المراد بالصخرة، صخرةٌ تحمل عليها الأرض كلها، وهذا القول قال به عدد من العلماء، لكن لا أعلم عليه دليلًا من الكتاب ولا من السُّنة الصحيحة.

ومن ثَمَّ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

«وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ [لقمان: الآية ١٦] أنها صخرة تحت الأرضين السبع.

ثم قال: وهذا والله أعلم كأنه مُتلقًى من الإسرائيليات التي لا تُصدق ولا تُكذَّب، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيُبديها ويُظهرها بلطيف علمه.

فيوصي لقمان ولده ويعلمه ويذكره بمراقبة الله عز وجل قائلًا:

يا بني إن ما تعمله من خيرٍ أو شرٍّ مهما كان صغيرًا، وإن كان صغيرًا في وزن حبة الخردل، وكذلك إن كنت أسررته، وعملته في مكان خفيٍّ، وبالغت في إخفائه، فسواء عملته وأنت في صخرةٍ قد أحاطت بك من جميع جوانبها، فلم يرك أحدٌ من الخلق، أو عملتها في أيِّ مكان في السماوات أو في أي مكان في الأرض، يأتِ بها الله يوم القيامة، وتوزن لك في ميزان حسناتك، إن كانت حسنة، أو في كفة السيئات إن كانت سيئة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا

حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧] ، وكما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

وكما قال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: الآية ٤٩] .

وفي هذا تعليم الوالد ولده مراقبة الله عَزَّ وَجَلَّ ، وتذكيره بأن الله يراه حتى يعمل صالحًا .

هذا؛ وهناك قول آخر في الآية الكريمة:

حاصله أن قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ المراد به الرزق، فيكون المعنى: يا بني إن الرزق الذي كتب لك سيأتيك في أي مكان من أي مكان ما دام قد قُدِّر لك، وهذا وإن كان صحيحًا، إلا أن القول الأول عليه أكثر العلماء في تفسير الآية الكريمة، والله تعالى أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم، ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، أي: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل. وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير الشأن والقصة. وجوز على هذا رفع ﴿مِثْقَالَ﴾ والأول أولى.

وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات أو الأرض،

فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقَّت ولطفت وتضاءلت، ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم.

وقال الطبري رحمه الله:

وعنى بقوله: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ زنة حبة، فتأويل الكلام إذن أن الأمر إن تك زنة حبة من خردل من خيرٍ أو شرٍّ فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله يوم القيامة حتى يوفيك جزاءه.

ثم يواصل لقمان رضي الله عنه وصاياه لولده ومواعظه له قائلًا:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: حافظ عليها وداوم على فعلها وأدائها في أوقاتها وأحسن قيامها وركوعها وسجودها وسائر أركانها.

وحقٌّ ما قاله لقمان لولده، فإن الصلاة عماد الدين وركن الإسلام العظيم - بعد الشهادتين -.

قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ...»(٢٥).

وإنها أولُ ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة:

قال ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢٦).

إنها تمحو - بإذن الله - الخطايا والذنوب:

قال ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»(٢٧).

لقد كانت ولا تزال وستزال شعارًا للصالحين:

---

(٢٥) البخاري حديث (٨)، ومسلم (١٦).

(٢٦)صحيح لشواهده: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣) وغيره.

(٢٧) البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

لقد قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: الآية ٤٠].

لقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: الآية ١٤].

وقال له ولأخيه هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس: الآية ٨٧].

وقال قوم شعيب لشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧].

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: الآية ٣١].

وطائفة من الأنبياء ذكرهم الله في كتابه وقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: الآية ٥٨].

وأصحاب رسولنا الكريم - عليهم رضوان الله -: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: الآية ٢٩].

وفي الجملة: ففضائل الصلاة لا تُحصى والأوامر بها لا تكاد تنتهي، والوصية بها تكاثرت وتعددت وتنوعت، والتحذير من تركها توارد من عدة وجوه.

فمن ثَمَّ أوصى لقمان ولده بها، وأكَّد عليها غايةَ التأكيد، ولا عذر لمسلم بالغ في تركها ما دام عاقلًا أو كانت المرأة حائضًا أو نفساء.

لا تترك الصلاة في سفرٍ ولا في حضرٍ، ولا في صحةٍ ولا في مرضٍ، ولا في شدةٍ ولا في رخاءٍ.

ثم يأمر لقمان ولده أن يكون آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر:

وهذا يشمل كلَّ معروفٍ وكل منكرٍ، ولا يبتعد الشخص إذ قال: إن الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - بُعثوا لذلك، فقد بُعثت الرسل آمرةً بتوحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، ناهية عن الشرك به، وأعظم معروف بلا شك هو توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وأقبح المنكرات على الإطلاق هو الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ.

ولقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦] .

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] .

ولقد نالت أمة محمد ﷺ الفلاح وكتبت لها الخيرية على سائر الأمم؛ لإيمانها بالله عَزَّ وَجَلَّ، وأمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠] .

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٠٤] .

إن النهي عن المنكر سببٌ من أسباب السلامة والنجاة:

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هُود: الآية ١١٦].

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى القرية التي كانت حاضرة البحر، تلك التي اعتدى أهلها في السبت، وبيَّن الله سبحانه وتعالى أن الذين نجَوْا هم الناهون عن المنكر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٦٥].

وفي الحديث(٢٨) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ

---

(٢٨) البخاري (٢٤٩٣).

وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا».

إنه سبيل أهل الصلاح المنيبين إلى الله تعالى:

قال الله سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

وسبيل أهل الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: الآية ٧١] .

وسبيل الذين باعوا أنفسهم لله عَزَّ وَجَلَّ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: الآية ١١١] إلى قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ

ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ [التوبة: الآية ١١٢] .

ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كفارة للذنوب والخطايا:

قال ﷺ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ»(٢٩) .

وكذلك فإنه صدقة على البدن:

فقد ذكر النبي ﷺ الصدقات التي على ابن آدم، وقال: «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ»(٣٠) .

ولقد حثَّ النبيُّ ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فقال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

---

(٢٩) البخاري (مع الفتح / ٢/ ٥٢٥)، ومسلم (١٤٤) .

(٣٠) مسلم بنحوه (١٠٠٦، ١٠٠٧) .

فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(٣١).

ويزداد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأكيدًا على أهل العلم:

قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: الآية ٦٣].

ثُمَّ، وكما جرت العادة بذلك فإن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر كثيرًا ما يتعرض لأذى من أهل الشر والفساد، وذلك لكونه ينهاهم عن غيِّهم، ويمنعهم من المحرمات التي يريدون مواقعتها، ومن الشهوات التي يريدون قضاءها، ومن أكل أموال الناس بالباطل، وغير ذلك من المحرمات التي ركبوها ودأبوا على فعلها، فمن ثَمَّ لا يرضيهم صنيع المعارض لهم، ولا صنيع من يأمرهم وينهاهم فيقدمون له صنوف الأذى حتى يتركهم ويُخلِّي بينهم وبين ما يريدون من صور الإفساد في الأرض، فحينئذ

(٣١) مسلم حديث (٤٩).

يثبت الله عَزَّ وَجَلَّ أقوامًا على طاعته وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآخرون يتركون ذلك خوفًا من الناس ومن بطشهم.

فيوصي لقمان ولده بالصبر على الأذى وتحمل البلاء والمضي قُدُمًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستمرار في ذلك.

ومثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

فالتواصي بالحق أحيانًا يتبعه بلاء، فمن ثَمَّ لزم التواصي بالصبر.

هذا؛ ولا يمنع أن يكون قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ عامًّا في كل ما يتعرض له الشخص من البلاء، بلاءً كان في الجسد أو في المال أو في الولد، أو غير ذلك من صور الابتلاءات التي تستلزم صبرًا وتقتضيه.

والنصوص الواردة في فضل الصبر والحثِّ عليه وبيان ما أُعد لأهله من الأجر كثيرة جدًّا:

أجتزأ منها بالآتي:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٠].

ولقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الإمامة تُنال بالصبر واليقين:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٤].

وبيَّن - سبحانه - أنه أعد للصابرين الغرف وهي في أعالي الجنان:

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

وقال - سبحانه - مُبينًا فضيلة من صبر:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشّورى: الآية ٤٣] .

وبيّن - سبحانه - أنه يحب الصابرين:

فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٦] .

ووردت الأوامر بالصبر والحثّ عليه:

في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفَال: الآية ٤٦] .

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النّحل: الآية ١٢٧] .

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٣] .

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ

وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ [البلد: الآية ١٧] .

وفي «الصحيحين»(٣٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَعْطَاهُ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفِدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لَا أَدَّخِرْهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» .

وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «والصَّبْرُ ضِيَاءٌ»(٣٣) .

ووردت نصوص كثيرة في فضل الصبر على الأذى والصبر في الجهاد، والصبر على المرض، وعلى فقدان البصر، وعلى جهالات الناس وحماقاتهم، والصبر على أمراء الجور، والصبر عند الصدمة الأولى، وغير ذلك

---

(٣٢) البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣).

(٣٣) مسلم (٢٢٣).

فنسأل الله أن يُصبرنا ويحفظ علينا إيماننا.

ثم يُؤكد لقمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لولده على هذه الأمور التي وعظه بها:

وهي قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ وذلك بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بها وأكَّد على فعلها.

هذا؛ وقد قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآيات إجمالًا:

«يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ يقول: وأمر الناس بطاعة الله، واتباع أمره، ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ يقول: وانه الناس عن معاصي الله ومواقعة محارمه ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ يقول: واصبر على ما أصابك من الناس في ذات الله إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، ولا

يصدنك عن ذلك ما نالك منهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يقول: إن ذلك مما أمر الله به من عزم الأمور عزمًا منه».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

«ثم قال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ اعلم أن الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، لابد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

«قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصى ابنه بعظم الطاعات وهي الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع،

ولقد أحسن من قال:

وابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها

فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر، فهو إشعار بأن المغيِّر يؤذى أحيانًا، وهذا القدر على جهة الندب والقوة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا.

وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل، وهذا قول حسن لأنه يعمّ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره، وقيل: إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور، أي مما عزمه الله وأمر به، قاله ابن جريج، ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل

الحزم السالكين طريق النجاة، وقول ابن جريج أصوب».

وقال القاسمي رحمه الله:

«﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي بحدودها وفروضها وأوقاتها، لتكميل نفسك بعبادة ربك ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، لتكميل غيرك ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾، أي من المحن والبلايا. أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الداعي إلى الحق معرّض لإيصال الأذى إليه، وهو أظهر. ويطابقه آية ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: الآية ٣]، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر. أو إلى كل ما أمر به ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي مما عزمه الله من الأمور. أي قطعه قطع إيجاب».

ثم يواصل لقمان رضي الله عنه نصحه وتذكيره لولده، ويُعلِّمه طرائق التعامل والتحادث مع الناس، ويؤدّبه بجملة من الآداب:

فيقول له: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تُعرض

بوجهك عن الناس وهم يحدثونك، بل أقبل عليهم وابتسم في وجوههم، ولا تلو عنقك عنهم، فإن هذا من شيم المتكبرين وأخلاقهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لاوي عنقه تكبُّرًا على الناس وتعاليًا عليهم، وكبرًا وازدراءً.

ويقول له كذلك: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ينهاه عن المشي في الأرض باختيال وتكبر وتجبر؛ وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يحب المختال في مشيته الفخور على الناس المتكبر عليهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، يقول: لا تُعرضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارًا منك

لهم، واستكبارًا عليهم. ولكن ألِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «وَلَوْ أَنْ تَلقى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ، وَإِيَّاكَ وَتَسْبِيلَ الْإِزَارِ فَإِنَّهُ مِنَ الْخُيَلَاءِ، وَالْخُيَلَاءُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ عز وجل».

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي: جذلًا متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يبغضك الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، ﴿فَخُورٍ﴾، أي: على غيره. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴿٣٧﴾ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه».

وقال القرطبي رحمه الله:

«معنى الآية: ولا تُمِل خدّك للناس كبرًا عليهم وإعجابًا واحتقارًا لهم، وهذا تأويل ابن عباس وجماعة، وقيل: هو أن تلوي شِدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره، فالمعنى: أقبل عليهم متواضعًا مؤنسًا مستأنسًا، وإذا حدّثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه، وكذلك كان

النبي ﷺ يفعل.

قلت (القرطبي): ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا؛ وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّام**»، فالتدابر: الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه، وإنما قيل للإعراض: تدابر؛ لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك، وكذلك يصنع هو بك، ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسره ويسرّك، فمعنى التدابر موجود فيمن صعر خده، وبه فسر مجاهد الآية، وقال ابن خُوَيْزَمَنْداد: قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: الآية ١٨] كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة».

وقال القرطبي أيضًا:

«﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي متبخترًا متكبرًا، مصدر في موضع الحال، وهو النشاط والمشي فرحًا في غير شغلٍ وفي غير حاجة، وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر

والخيلاء فالمرح مختال في مشيته».

هذا؛ وقد وردت في الحثِّ على التواضع والأمر به نصوص كثيرة:

منها: ما ثبت عند مسلم[(٣٤)] من حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قام فينا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا فَقَالَ: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ، عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

ولقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»[(٣٥)].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

---

(٣٤) مسلم (٢١٩٨).

هذا؛ وقد اجتزأت باليسير الذي ذُكر، وإلا فالباب واسع جدًّا، والنصوص فيه كثيرة متعددة.

(٣٥) مسلم (٢٥٨٨).

وكذا وردت نصوص في ذم الكبر والاختيال والفخر:

منها: قول الله تبارك وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] .

وأخرج مسلم(٣٦) في «صحيحه» من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»**، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: **«إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ(٣٧) وَغَمْطُ النَّاسِ»**(٣٨).

وصحَّ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ»**(٣٩).

---

(٣٦) مسلم (٩١).

(٣٧) **بطر الحق:** هو ردُّ الحق ودفعه وإنكاره كبرًا وتعاليًا وترفعًا وتجبرًا.

(٣٨) **غمط الناس:** المراد به احتقارهم وازدراؤهم.

(٣٩) أخرجه البخاري (٥٧٨٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

وصحَّ عنه أيضًا أنه قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٤٠).

وصحَّ عنه أنه قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ؛ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٤١).

ثم يواصل النصح والتذكير قائلًا:

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾، أي تواضع في مشيك إذا مشيت وفي مسيرك إذا سرت، ولا تستكبر ولا تستعجل، ولا تسرع، بل اقتصد في المشي؛ ليكن المشي معتدلًا بين الإسراع والتباطؤ، لا مسرعًا تمشي فتختل، ولا متباطئًا كمشية المريض أو المتمارض.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٣].

---

(٤٠) أخرجه البخاري (٥٧٩٠).

(٤١) البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

وكذا يعلمه طريقة التخاطب مع الناس فيأمره قائلًا: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ أي: واخفض صوتك فاجعله وسطًا أيضًا.

وعلّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ أي: فلو كان في رفع الصوت مطلقًا (في كل وقت) خيرٌ لما اختصت به الحمير، بل الحمير صوتها أنكر الأصوات وأشر الأصوات وأقبح الأصوات، وليس لأهل الفضل والصلاح والخلق الكريم أن يتشبهوا بالحمير - عياذًا بالله -.

قال القرطبي في تفسير الآية الكريمة:

يقول: وتواضع في مشيك إذا مشيت ولا تستكبر ولا تستعجل ولكن اتَّئد.

ونقل عن قتادة بسندٍ حسن قال: «نهاه عن الخيلاء».

ووجه آخر عن قتادة قال: «أمره بالاقتصاد في صوته».

وعن ابن زيد قال: «اخفض من صوتك».

وأورد عن قتادة كذلك بسندٍ حسن: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ

لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: أقبح الأصوات لصوت الحمير أوَّله زفير وآخره شهيق، أمره بالاقتصاد في صوته».

وهذه طائفة من الفوائد المستنبطة من هذه الموعظة:

الأولى: بيان أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو صاحب الفضل، وأن كل ما بنا من نعم فمنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن.

فالحكيم حكمته من الله عَزَّ وَجَلَّ، والعالم علمه من الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: الآية ١٢].

وكذلك ثَمَّ آيات أُخر يستدل بها في هذا الباب كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: الآية ١١٣].

وكقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: الآية ٦٦].

فعلى كل عالم أن يدرك ذلك، وعلى كل عاقلٍ وحكيم أن يدرك ذلك، عليه أن يدرك أن ما به من نعمة فمن الله.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

الثانية: وجوب شكر الله على نعمه وآلائه وفضله وإحسانه.

الثالثة: الثناء على الشخص الذي يُراد قبولُ قوله، وذلك حتى يلقى قولُه قبولًا، وذلك مأخوذ من الثناء على لقمان قبل ذكر موعظته لولده بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: الآية ١٢].

الرابعة: استحباب وعظ الوالد لولده؛ وذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان: الآية ١٣] وعلى ذلك أدلة كثيرة أُخر:

منها: قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لولده: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: الآية ٤٢].

وكذا قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ

ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٢] .

وكذا وصية رسول الله ﷺ لابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما استشعر عليه الصلاة والسلام الموت:

أخرج البخاري ومسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إِنَّا كُنَّا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ جَمِيعًا لَمْ تُغَادَرْ مِنَّا وَاحِدَةٌ، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ - عَلَيْهَا السَّلَام - تَمْشِي لَا وَاللَّهِ مَا تَخْفَى مِشْيَتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَآهَا رَحَّبَ. قَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي»، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ - أَوْ عَنْ شِمَالِهِ - ثُمَّ سَارَّهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى حُزْنَهَا سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَإِذَا هِيَ تَضْحَكُ، فَقُلْتُ لَهَا أَنَا مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ: خَصَّكِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالسِّرِّ مِنْ بَيْنِنَا ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا عَمَّا سَارَّكِ، قَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِرَّهُ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ قُلْتُ لَهَا: عَزَمْتُ عَلَيْكِ بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقِّ لَمَّا أَخْبَرْتِنِي؟ قَالَتْ: أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ، فَأَخْبَرَتْنِي قَالَتْ: أَمَّا حِينَ سَارَّنِي فِي الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَارَضَنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا

قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّنِي الثَّانِيَةَ. قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ، أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ»(٤٢).

الخامسة: بيان خطر الشرك، وأنه ظلمٌ عظيمٌ.

السادسة: الوصية بالوالدين والتنصيص على الأم بذكر فضلها، وما بذلته من جهدٍ لرعاية ولدها، وتقديم الشكر لهما.

وقد دلت على ذلك أدلة كثيرة من كتاب الله عز وجل، ومن سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ

---

(٤٢) البخاري (مع الفتح/ ١١/ ٧٩)، ومسلم (مع النووي/١٦/ ٥).

قال القرطبي رحمه الله:

وقوله: ﴿يَـٰبُنَيَّ﴾ ليس هو على حقيقة التصغير، وإن كان على لفظه، إنما هو على الترقيق كما يُقال للرجل: يا أُخَيَّ، وللصبي هو (كويس).

وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: الآية ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٨].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: الآية ١٤].

فيأمر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة بشكره وشكر الوالدين.

وفي معرض الثناء على الأنبياء ومدحهم يأتي الثناء عليهم لبرهم بوالديهم:

قال الله - سبحانه - في شأن نبيه يحيى بن زكريا عليهما السلام ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٤].

وهذا نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يتكلم في المهد فيقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٢].

السابعة: بيان مدة الرضاعة، وأنها سنتان، وبعد السنتين فالرضاعة لا تحرم.

هذا؛ وقد استنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: الآية ١٤].

وقوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: الآية ١٥] أن أقلَّ مدة للحمل ستةُ أشهر، والله أعلم.

هذا؛ ومما يؤكد أن الرضاعة المحرمة إنما هي الرضاعة في الصغر والغلام دون الحولين ما يلي:

قول الله سبحانه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٣].

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«انتزع مالك - رحمه الله تعالى - ومن تابعه وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين؛ لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة، هذا قوله في «موطئه»(٤٣).

وعن عائشة رضي الله عنها(٤٤): أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا رَجُلٌ، فَكَأَنَّهُ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ، كَأَنَّهُ كَرِهَ ذَلِكَ فَقَالَتْ: إِنَّهُ أَخِي، فَقَالَ: **«انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ(٤٥) فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ»**.

---

(٤٣) لفظ مالك في «الموطأ» (ص٦٠٤) في النسخة التي بين أيدينا: الرضاعة قليلها وكثيرها تُحرّم، فأما ما كان بعد الحولين فإن قليله وكثيره لا يُحرّم شيئًا، وإنما هو بمنزلة الطعام.

(٤٤) البخاري (٥١٠٢)، ومسلم (١٤٥٥).

(٤٥) قال الحافظ في «الفتح» (٩/ ١٤٨):

والمعنى: تأملن ما وقع من ذلك هل هو رضاع صحيح =

= بشرطه، من وقوعه في زمن الرضاعة، ومقدار الارتضاع؛ فإن الحكم الذي ينشأ من الرضاع إنما يكون إذا وقع الرضاع المشترط.

قال المهلب: معناه: انظرن ما سبب هذه الأخوة، فإن حرمة الرضاع إنما هي في الصغر حتى تسد الرضاعة المجاعة.

وقال أبو عبيد: معناه أن الذي جاع كان طعامه الذي يشبعه اللبن من الرضاع لا حيث يكون الغذاء بغير الرضاع.

وقوله: «**فإنما الرضاعة من المجاعة**» فيه تعليل الباعث على إمعان النظر والفكر؛ لأن الرضاعة تُثبت النسب وتجعل الرضيع محرمًا.

وقوله: «**من المجاعة**» أي الرضاعة التي تثبت بها الحرمة وتحل بها الخلوة هي حيث يكون الرضيع طفلًا يسد اللبن جوعته؛ لأن معدته ضعيفة يكفيها اللبن وينبت بذلك لحمه فيصير كجزء من المرضعة فيشترك في الحرمة مع أولادها، فكأنه قال: لا رضاعة معتبرة إلا المغنية عن المجاعة أو المطعمة من المجاعة، كقوله تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قُرَيش: الآية ٤].

ومن شواهده: حديث ابن مسعود: «**لا رضاع إلا ما شدَّ العظم وأنبتَ اللحم**». [أخرجه أبو داود مرفوعًا وموقوفًا].

وحديث أم سلمة: «**لا يحرم من الرضاع إلا ما فتقَ الأمعاء**». [أخرجه الترمذي وصححه]. قاله الحافظ في «الفتح».

وأخرج الترمذي بسندٍ صحيح من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ»**(٤٦).

وأخرج عبد الرزاق بسندٍ صحيحٍ عن أبي عطية الوادعي قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: إنها كانت معي امرأتي فحُصر لبنها في ثديها، فجعلت أمصه ثم أمجُّه، فأتيت أبا موسى فسألته فقال: حرمت عليك، قال: فقام وقمنا معه حتى انتهى إلى أبي موسى، فقال: ما أفتيت هذا؟ فأخبره بالذي أفتاه. فقال ابن مسعود، وأخذ بيد الرجل: أرضيعًا ترى هذا؟ إنما الرضاع ما أنبت اللحم والدم، فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء ما كان هذا

---

(٤٦) الترمذي (١١٦٢ مع التحفة).

وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ، أَنَّ الرَّضَاعَةَ لَا تُحَرِّمُ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ، وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ الْكَامِلَيْنِ فَإِنَّهُ لَا يُحَرِّمُ شَيْئًا.

الحبر بين أظهركم[٤٧].

وأخرج سعيد بن منصور بسندٍ صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لا رضاع إلا ما كان في الحولين»[٤٨].

وأخرج مالك[٤٩] بسند صحيح عن عبد الله بن دينار أنه قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمر وأنا معه عند دار القضاء، يسأله عن رضاعة الكبير؟ فقال عبد الله بن عمر: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني كانت لي وليدة[٥٠]، وكنت أطؤها، فعمدت امرأتي إليها فأرضعتها فدخلتُ عليها، فقالت: دونك فقد والله أرضعتُها، فقال عمر: أوجعها[٥١] وائت جاريتك[٥٢] فإنما الرضاعة

(٤٧) «المصنف» (٧/ ٤٦٣).

(٤٨) سعيد بن منصور في «السنن» (٩٨٠).

(٤٩) «الموطأ» (ص٦٠٦).

(٥٠) المراد بالوليدة: الأمة.

(٥١) أوجعها: أي اضربها ضربًا موجعًا.

(٥٢) وائت جاريتك: أي جامعها.

رضاعة الصغير.

الثامنة: الإحسان إلى الوالدين الكافرين أيضًا، ومصاحبتهما بالمعروف في الدنيا، وإن كان مشركين.

لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: الآية ١٥].

فمع عدم الطاعة فيما يدعوان إليه من الشرك هناك مصاحبة بالمعروف.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وأخرج البخاري ومسلم(٥٣) من حديث أسماء بنت أبي

---

(٥٣) البخاري مع «الفتح» (٥/ ٢٣٣)، ومسلم (٣/ ٤١).

بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: قَدِمَتْ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ(٥٤) وَمُدَّتِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ مَعَ ابْنِهَا، فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ(٥٥) أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ**».

التاسعة: بيان أن الطاعة إنما تكون في المعروف، ولا طاعة لأحدٍ يأمر بمعصية الله أو بالشرك به، وعلى ذلك بعض الأدلة.

أخرج البخاري ومسلم(٥٦) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا وَقَالَ:

---

(٥٤) عند البخاري مع «الفتح» (٦/ ٢٨١)، في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومُدَّتهم، قال الحافظ «الفتح» (٥/ ٢٣٤): وأراد بذلك ما بين الحديبية والفتح.

(٥٥) في قوله: **(راغبة)**: أقوال، والذي عليه الجمهور - كما نقله الحافظ في «الفتح» - أنها قدمت طالبة في برِّ ابنتها لها خائفة من ردِّها إيَّاها خائبة.

(٥٦) أخرجه البخاري مع «الفتح» (١٣/ ٢٣٣)، ومسلم (١٨٤٠).

ادْخُلُوهَا فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: «لَوْ دَخَلُوهَا، لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وَقَالَ لِلْآخَرِينَ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ؛ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»(٥٧).

وأخرج أحمد(٥٨) بإسناد صحيح عن حنظلة بن خويلد العنبري قال: بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي رَأْسِ عَمَّارٍ، يَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: لِيَطِبْ بِهِ أَحَدُكُمَا نَفْسًا لِصَاحِبِهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ».

---

(٥٧) وصح عن النبي ﷺ كما في البخاري (١٣/ ١٢١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**».
وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: الآية ٢٨].

(٥٨) أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

قَالَ مُعَاوِيَةُ: فَمَا بَالُكَ مَعَنَا. قَالَ: إِنَّ أَبِي شَكَانِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَطِعْ أَبَاكَ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا تَعْصِهِ» فَأَنَا مَعَكُمْ وَلَسْتُ أُقَاتِلُ.

فعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإن أطاع أباه لكون النبي ﷺ أوصاه بذلك فقال: «أَطِعْ أَبَاكَ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا تَعْصِهِ»، إلا أنه لم يقاتل المسلمين، ولم يرفع سيفه عليهم - رضي الله عنه وأرضاه -.

وهذا مزيد من الأدلة في النهي عن تقليد الآباء فيما هم عليه من كفر وعصيان وبدعة ومنكر وضلال:

حيث إن هذا التقليد الأعمى سبيل أهل الكفر والضلال.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا

يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمَان: الآية ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢١- ٢٣].

العاشرة: الحث على سلوك سبيل أهل الفضل والصلاح.

الحاديةَ عشْرةَ: التذكير بالآخرة وبالمرجع والمآب، وذلك من قوله تعالى: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

الثانيةَ عشْرةَ: تعليم الأبناء مراقبة الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه يراهم ويطلع عليهم، وعلى أعمالهم، وأنه سيوافيهم بها يوم

القيامة.

الثالثةَ عشْرةَ: بيان عظم شأن الصلاة، وعظم شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى.

الرابعةَ عشْرةَ: التأدب عند مخاطبة الناس وعدم الإعراض بالوجه عنهم، والتأدب في المشي والنهي عن الاختيال والفخر.

الخامسةَ عشْرةَ: في الآيات إثبات صفة المحبة لله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك من المفهوم المخالف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

وفي الباب أدلة كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤].

السادسةَ عشْرةَ: بيان أدب السير في الطرقات.

السابعةَ عشْرةَ: بيان أدب التخاطب والتحادث مع الناس، وفضيلة خفض الصوت بالقدر الذي يسمع من

تحادثه.

الثامنةَ عشْرةَ: جواز ضرب الأمثال بالحُمُر ونحوها للتنفير من خصالها، وبيان أنكر الأصوات، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ».

التاسعةَ عشْرةَ: مشروعية التذكير بقصص ومواعظ السابقين للاستفادة منها.

العشرون: بيان فضيلة لقمان رحمه الله ورضي عنه.

الحادية والعشرون: ذكر طائفة من أسماء الله الحسنى كالغني، والحميد، واللطيف، والخبير.

فهذه بعض الفوائد، وثَمَّ فوائدُ أُخر يضيق المقام بذكرها.

وهذا كله من فضل الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم من بركة هذا الكتاب العزيز فهو كتاب مبارك، كما وصفه الله تعالى إذ قال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٠]، وكما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: الآية ٢٩].

فنسأل الله أن ينفعنا، وأن يرفعنا بهذا الكتاب العزيز. وأن يجعله شاهدًا لنا لا علينا. وأن يشفعه فينا يوم نلقاه.

كما أسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين، وأن يجعلنا مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسُن أولئك رفيقًا.

هذا؛ وما كان من صواب في هذه الرسالة فمن فضل الله عَزَّ وَجَلَّ، فله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن.

وما كان من خطإ فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان من ذلك، وأتوب إلى الله وأستغفره.

هذا؛ وصلِّ اللهم على نبينا محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي

الفهرس

الموضوع	الصفحة





سلسلة تأملات في آيات
قصة
وصايا لقمان لابنه
تأليف
الشيخ مصطفى العدوي
مكتبة مكة
مطابع
دار الصحيفة
جوال : 010 6695743